

كواكب حول الرسول (ﷺ)

فصل

إن أخطر ما في حياة البشر أفرادا وجماعات من علاقات هي علاقة الرجل بالمرأة ، كانت وستظل هذه العلاقة قبل وبعد أى علاقات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، إذ هي قلب ولب كل الصور من العلاقات ، فكان من الطبيعي أن تحظى بعناية خاصة من الرحمن ، الذى يمين عليكم أن هداكم للإيمان ، والذى تفضل علينا من خلال رسوله الأمين بإرشادنا إلى كل ما يقابلنا من دقائق هذه المعاملة ، بصورة عملية شافية لكل من يرجو الله واليوم الآخر ، وذلك أن السنة المطهرة ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب ، بل هي تشمل قوله وفعله وتقديره ، وكل هذا من التشريع الذى يجب على الأمة اتباعه ، والفعل أقوى من القول والتقرير ، والقول والتقرير مجال للاختلاف حول السنة والمعنى والمناسبة ، ويُذكر منه ويُنسى ويضعف ويقوى ، ولكن ماذا نقول فى الفعل المشاهد الملموس الحى ، الممتد عبر الأشهر والسنين ، فى السراء والضراء والحرب والسلم ، هل يمكن أن يختلف اثنان فى أن الرسول ﷺ قد تزوج فلانة أو فلانة من أمهات المؤمنين ، أم يختلف اثنان فى أن عائشة رضى الله عنها كانت بكرا أو كانت صغيرة ، أو أن خديجة رضى الله عنها كانت

تكبره سنا أو أن صفة رضى الله عنها هي بنت حبي بن أخطب زعيم اليهود ، أو أن مارية القبطية جاءت من مصر .

إذاً تكون التربية والتوجيه والإرشاد والهداية من خلال فعل الرسول ﷺ ، ومن خلال حياته الزوجية التي تشمل جميع صور علاقات الرجل والمرأة هي من أعظم نعم الله علينا ، ومن أبعدها مجالا عن الضعف والاختلافات ، ومن أقواها حماية لحقوق المرأة وواجباتها في جميع أحوالها الحياتية صغيرة كانت أم كبيرة ، غنية أم فقيرة ، ثيباً أم بكراً ، أرملة أم مطلقة ، جميلة أم عادية ، ودودا ولودا أم عجوزا عقيما ، حرة أم أمة ... إلى آخر الظروف التي ستعيش فيها نساء العالمين، حتى يكون لكم ولهن للمؤمنين وللمؤمنات أسوة حسنة في فعل الرسول الأمين مع أمهات المؤمنين ، اللاتي شملت أحوالهن كل ما يمكن أن تتعرض له أنثى في أى وقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

★ لنضرب سوراً حول أى حى من الأحياء فى أى بلد من البلاد إسلامى كان أو غير إسلامى ، متحضر تجرى فيه القطارات تحت الأرض أو فوقها ، والطائرات فى سماءها ، أو متخلف تمشى عليه اللواب ، ثم لنجرى إحصاء على الطبيعة ، نخثا ميدانيا باللغة التى تستهويننا عن كل العلاقات الزوجية داخل هذا الإطار ، بحث وصفى لا أكثر ، سنجد فى كل الأحوال الصور متشابهة ولن نخرج عن رجل متزوج بمن يحبها وتحبه ، أو بمن يكرهها أو تكرهه ، أو متزوج ممن هي فى مثل سنه أو بمن تكبره أو تصغره ، أو بغنية أو بفقيرة ، أو

بمتعلمة أو بأمية ، أو بذات حسب أو بالمقطوعة من الأهل ، أو بنت أصدقائه أو بنت أعدائه ، أو بمطلقة أو بمن لها أولاد ، أو بقريبة أو ببعيدة ، بالعاقر أو الولود ، وإذا سألنا كلا منهم كيف خطبت زوجتك وكيف أقمت الفرح ، وكيف أمهرتها ، وكيف تسكن الآن ، وجدنا في كل حي صورا شتى لا صورة واحدة .

هذه الشبكة الخطيرة الواسعة من العلاقات ما يخفى فيها أكثر مما يظهر ، وما بينهما وبين الله فيها أكثر مما بينهما وبين الناس ﴿ وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ .

هذه العلاقة المتشعبة الممتدة الجذور في حياة كل أسرة ، المتشابكة الفروع المغدقة بالثمر ، كيف يهتدى فيها النساء والرجال على حد سواء إلى أقوم السبل وأقوى الروابط ، وأوضح الحقوق وأسعد صور الحياة في الدنيا والآخرة كيف سبيل كل منهم إلى شيء من ذلك ما لم يكن في حياة الرسول العملية الجواب الشافي ، وقد آتانا الله سبحانه وتعالى بالجواب الشافي وزوج رسوله الأمين الزوجات اللاتي أحطن بجميع صور العلاقات ، لنأخذ من حياتهن الجواب والأسوة الحسنة إنه تزوج من أجلنا ، فبعد أن بلغ الرسول أكثر من خمسين عاما حملة ربه هذه الأمانة رحمة بضعفائنا ، وهديا لحكمائنا صلى الله عليك وسلم ، يارسول الله ما أعظم ما قدمت إلى البشر من خير وهم لا يعلمون ، ويأتيك منهم الإساءة تلو الإساءة فجهل الصديق ككيد العدو .

ألست أنت القائل ما تزوجت شيئا من أزواجى ، ولا زوجت شيئا من بناتى إلا بوحي من الله تعالى ، ماذا تقول لنا أوضح من هذا ، ولكن معذرة فإننا أصبحنا أمة لا تقرأ إلا قليلا من أحاديثك ، فهى تدافع عنك بجهل فتسئ حين تظن أنها تحسن ، أو تعجز عن الدفاع عنك فتمعن فى الإساءة ، وذلك يجرهم إلى الإساءة إلى كتاب الله أيضا ، ويحق لك أن تشكونا إلى بك قائلا يارب ﴿ إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

لندخل إلى موضوعنا من مداخل شتى —

أولا — الباعث على الزواج فى حياة البشر ، والهدى فى ذلك من باعث النبي ﷺ على كل زوج .

ثانيا — صور الخطبة وعقد القران فى حياة البشر ، والهدى فى ذلك من فعل النبي ﷺ عند كل زوج .

ثالثا — صور الدخلة والولائم ، وأثاث البيوت والسكن فى حياة البشر ، والهدى فى ذلك من فعل النبي ﷺ .

رابعا — صور من اختلاف الحال والظروف فى حياة البشر ، والهدى فى ذلك من حياة النبي ﷺ ، ومن حياة أمهات المؤمنين معه وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وبعد ذلك أوجه لكم سؤالا واحدا بعد أن ننتهى من الاستعراض . هل يعلم أحد منكم حالة من العلاقات الزوجية فى حياة الناس تخرج عن هذه الصور ، أو لا يمكن القياس عليها ، فإن

أجبتكم بالنفى عرفتم حكمة هذا التعدد في حياة الرسول ، إنه تعدد لنا لدين الله ولعباده المؤمنين ، لا لشخص الرسول ﷺ فهل وعينا الدرس الأول .

— بواعث الزواج

الزواج يعنى السكن والمودة والرحمة ، وهو ما تعبر عنه بالحب ، ويبقى بعد ذلك السؤال قائما وهو لماذا هذه المرأة بالذات دون غيرها ، وأى منهم يمكن أن تجد معها السكن والمودة والرحمة ، نعم لماذا اخترت هذه بالذات ، أو لماذا اخترتها قلبك ؟ أمن أجل المال ! أمن أجل الحسب ! أمن أجل الجمال ! أو من أجل الدين ... لماذا — وماذا وراء هذا الاختيار ؟ وهو ما أعنى به بياض الزواج ، أى السبب البعيد والهدف الذى يسيطر على حياتك من قبل التفكير في الزواج ، هنا يختلف الأفراد في بواعثهم ، بل وتعدد البواعث أحيانا في الشخص الواحد ، تبعا لتنوع أهدافه على قدر موقعه من المسؤولية في تيار الحياة المتدفق ، وعلى قدر الثغرة التى يقف عليها في جبهة القتال العريضة ، مع الباطل المستأسد على هذه الأرض ، مازلت أتكلم عن تصور البواعث لدى المؤمنين ، لكن وماذا عن غير المؤمنين ؟ وماذا عن الشياطين عندما تتعدد بواعثهم وتكثف أهدافهم الشيطانية إن لهم زواجا أيضا على مستوى أغراضهم الخبيثة إنهم يجلون في علاقة الزواج بمعناه الجنسي لا بمعناه الكريم أيضا وسيلة إلى أهدافهم العدوانية .

الزواج سلطة أعطها الله للبشر ، عملة ذات وجهين يستعملها المؤمنون في الخير وفي تحقيق الأهداف الخيرة ، ويستعملها الشياطين في حروبهم مع دين الله على مدار العصور .

من هذا المنطلق ذهب الصليبيون إلى التتار ووجدوا في سلاح المصاهرة فرصتهم لتقوية الحلف ضد المسلمين بعد ان أعيتهم الحيل ، فزوجوا أخت إمبراطور بيزنطة لملك التتار ، فقوى الحلف وهجموا على العالم الإسلامي ، وحطموا كل شيء فيه ، لولا أن الله تدارك المسلمين برحمته عندما مات ملك التتار ، وقتل ابن أخت قائد المغول « يلبغا » فظن أن الصليبيين يتحينون الفرص لنقض الحلف بعد موت الملك فتخوف منهم وطالب برهائن من قوادهم قبل الهجوم المشترك على مصر ، فتوجسوا من طلبه فانفصم الحلف ، كل ذلك قد حدث على صعيد العدو بفعل الله ، عندما كان المسلمون يأخذون بأسباب النصر على الصعيد الآخر بقيادة العزيز بن عبد السلام بهجر المعاصي وتطهير القلوب ، وتوحيد الصفوف والإنابة إلى الله ، فخرجوا على رأس جيش مؤمن تم له النصر في عين جالوت .

لم ييأس الصليبيون وعادوا حملاتهم على الشام ، وتمت لهم الغلبة المؤقتة ، وأقاموا خمسة ممالك ، وعاد المسلمون فأخذوا بأسباب النصر فهزموا الصليبيين في معركة حطين بقيادة صلاح الدين واستعادوا بيت المقدس .

أعاد الصليبيون تقدير الموقف وغيروا خطتهم الحربية ، بحيث يكون التركيز على مصر أولا ليستقر ملكهم في الشام ثانيا ، فرفعوا شعار « إلى بيت المقدس عن طريق مصر » وتحولت الحملات الصليبية إلى سواحل مصر بدل سواحل الشام وهالتهم الهزائم المتتالية ، وفكروا في استخدام وسائل أخرى غير وسيلة القتال بأن يتركوا الأمة الإسلامية غارقة في أحلام الاستقرار ويكيدوا لها كيда بأن يجففوا من حولها منابع الحياة ، وفكروا ووجدوا حيلة جديدة في تحويل طرق التجارة القادمة من الشرق حتى لا تمر على مصر ، بل تقطع طريقا بريا طويلا تمر من تحت بحر قزوين إلى ميناء الإسكندرونة على البحر الأبيض ، ولكن لم تنجح الفكرة وكلفتهم الكثير ، وظلت مصر قوية وبحثوا عن السبب في استقرار قوة مصر ففقدروا أن السبب في ذلك هو استمرار تدفق النيل ، إذن عليهم أن يحولوا مجراه ووجدوا في سلاح المصاهرة فرصتهم مرة أخرى ، فأرسلوا أميرا فرنسيا فتزوج من أميرة حبشية ، وعقب الزواج تدفقت العدد والآلات لإجراء التحويل ، ولقطع شريان الحياة لولا أن المشروع استحال فنيا بفضل الله ورحمته، لا بفضل أحد من الغارقين في المعاصي .

• وتجري عجلة التاريخ وتدخل الحملة الفرنسية مصر، وتلاق من الولايات ما تلاق إلى أن خرج نابليون بليل ، وقُتل خليفته كليبر ، وجاء مينو خليفة كليبر ووجد في سلاح المصاهرة مطمحا لتثبيت أقدام الحملة ، فتزوج من زينب البكرية ، وأعلن الإسلام ليكسب

ولنتقل مرة واحدة إلى واقعنا الحديث حيث تقدم الفاتنات أعراضهن رخيصة في عمليات التجسس المتبادلة بين الدول ، وكل الدول تجعل الجنس على رأس أسلحتها في الحرب الخفية الدائرة بينها .

وشهرة تجار العرض من اليهود معروفة على مدار التاريخ ، وحتى اليوم ، حتى رويت عنهم الأعاجيب ، ويكفى أن نعلم من قصة حياة أى زعيم أن أمه كانت يهودية،أو أن زوجته يهودية ، حتى نوقن أن الأمر لم يكن مجرد اتفاق بل وراءه سر رهيب لهدف بعيد ، أليس على قمة احتفالات إسرائيل إحياء ذكرى سالومى ، المثل الأعلى للغانيات التى تزوجت من الملك المعادى لليهود — مع التجوز في كلمة تزوجت — ثم نجحت وهى فى أحضانه أن تغريه بقتل سبعين ألفا من خصوم اليهود فى ليلة واحدة . ومنذ عدة أعوام قرأت عن احتفالات مماثلة فى إسرائيل تكريما لامرأة قدمت أجل الخدمات بافتتاح بيت للدعارة بجوار مبنى الأمم المتحدة ، جمعت فيه فاتنات العالم للإيقاع بمنلووى الأمم لصالح سياسة إسرائيل . وهكذا تلعب هذه العلاقة بين الرجل والمرأة دورا سياسيا كبيرا فى تاريخ البشر ، سواء فى صورتها المشروعة وهو الزواج،أو فى صورتها الغير مشروعة وهى البغاء ، وهذا أحد البواعث العديدة فى علاقة الرجل بالمرأة .

فأى غرابة أن نفتح موضوعنا ببواعث الزواج فى حياة رسول الله ، الذى علمنا كيف يؤدى الزواج رسالته فى جانب الإيمان ،

ومن تكريم الله للإنسان أن ينأى به عن عالم الحيوان ، فلا يجعل العلاقة في حد ذاتها هدفا وإنما باعتبار غايتها فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل ، ومن تكريم الله للإنسان أن يثبته على كل حب يكون موصلا إلى الله لا قاطعا عنه ، وحذرنا الله تعالى من الحب الذى يقطع ويشغل عن الهدف الكريم « فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ويحذرنا في قوله تعالى ﴿ إِنْ مِنْكُمْ أَزْوَاجٌ لَّكُمْ وَلَدٌ أَوْ أَوْلَادٌ لَّكُمْ وَلَكُمْ مِنْكُمْ أَوْلَادٌ ﴾ فاحذروهم ﴿ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴾ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » ، لذلك يقول رسول الهدى « تعس عبد المرأة تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة » ويقول « فاظفر بذات الدين تربت يداك » لأنها هي التى تعين على الأهداف الصحيحة .

ادخل على الزواج بالبواعث الصحيحة — فتكون زوجتك هى خير ما رزقت فى دنياك . قبل الرسول ﷺ الزواج من خديجة رضى الله عنها التى اشتهرت فى قومها بالشرف والعقل والشخصية ، وحسن التدبير والعفة ، وأنعم بذلك باعثا ، قبل باعث المال والجمال ، وفوق اعتبار السن .. الباعث فى زواج الرسول الكريم من سودة بنت زمعة لما كلمته خولة بنت حكيم السلمية ﷺ

وعرضت عليه عائشة قال لكنه من البيت يرعى شؤونه ومن لبنات الرسول يخدمهن ؟ فذكرت له سودة بنت زمعة التي استشهد زوجها وتعانى الوحدة والاضطهاد ، والتي تكبر الرسول بخمس سنوات وكان عمرها حين تزوجها ٥٥ عاما ، ولم تكن جميلة ، فكان انشغاله برعاية شؤون البيت وخدمة البنات وفضلا عن ذلك تخفيف عداوة قومها بنى عبد شمس أعداء الرسول وأعداء بنى هاشم هو الباعث الأول ، وقد خفف بالفعل قومها من عداوته ﷺ وأسلم الكثير من أهلها لذلك ، وجد فى حياته باعثن فى وقت واحد فكانت سودة لهذا الغرض ، وكانت عائشة رضى الله عنها لما يتوقع من ورائها من خير لدين الله ، قبل ان يخفق نحوها قلبه بحب ، أليست صغيرة ولكنه رآها فى المنام عدة مرات عرضها عليه جبريل عليه السلام فى قطعة حرير خضراء قائلا إنها زوجتك فى الدنيا وفى الآخرة ، فكشف الغطاء فإذا هى عائشة ، فتعجب وقال إن يكن هذا من عند الله يمضه ، وأخذ بنصيحة خولة عندما قال لها عن عائشة أنها صغيرة ، قالت تخطبها اليوم إلى أيها ثم تنتظر حتى تنضج .

★ وتأتى حفصة بعد عائشة إكراما لأبيها عمر بن الخطاب ، وما أوجز قول عمر فى كشفه عن حكمة هذا الزواج وكرم الرسول فيه حين يقول لابنته عندما سمع أنها تغاضب رسول الله : يا بنية تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية لا يغرنك هذه

التي أعجبها حسننها وحب رسول الله ﷺ لها ، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ... وقال لها ذات مرة أين أنت من عائشة وأين أبوك من أيها .

• ويوضح القرآن الكريم باعث الزواج من زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وأنه إبطال عادة التبني المنتشرة في الجاهلية ، ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

• أما زينب بنت خزيمة التي كانت تبلغ من العمر ٦٣ عاما حين تزوجها الرسول ، والتي استشهد زوجها في أول مبارزة في بدر ، ولم يكن لها أحد يرعاها من بعده ، ولا يقبل أحد في العادة على الزواج من امرأة عجوز ولو حدث في عصرنا لتهكمنا ، لكن الرسول بفعله هذا يسمو بتصوراتنا بالعلاقة الزوجية عن أن تكون دائما من أجل الجنس ، وأن تكون العلاقة من أجل معاني أخرى أكرم ، كأن يكون للمرأة المسنة عائلا ، أو أن تأنس برجل ، وألا تمضي ليلتها مطمعا للصوص ، وأن تجد من يخدمها من أبناء غيرها من الزوجات الفتيات ، وأن يرد لها جميل في كهولتها ولو بكرامة انتمائها إلى الحياة الأسرية ، أليس هذا خير من مؤسسات العجزة ، ألم تقل سودة المسنة التي كانت في مثل سن زينب بنت خزيمة لرسول الله عندما فاتحها في الطلاق والله يارسول الله مابي إلى

الزواج من حاجة ، ولكنى أرجو أن أبعث يوم القيامة زوجة لرسول الله ، وأتبرع بيومى لعائشة ، وعاشت سعيدة فى بيت الزوجية ، وعلى أمل أن يكون الرسول زوجها فى الجنة ، دون أن يكون بينها وبين الرسول ما يكون بين الرجل والمرأة .

ألا يمكن بمثل هذا أن تصحح المرأة العجوز الذى فاتها حظها فى الدنيا حيث تكون قد تزوجت بمن ليس كفء لها فتقيم علاقة زوجية وهى فى سن متقدم لا لهدف فى الدنيا وإنما لتكون زوجة لآخر يوم القيامة ، ألا تصحح القيامة نقائص الدنيا . رحمتك الله يابن الخطاب حين قلت لمن أراد أن يطلق زوجته لأنه لا يحبها فأين التذمم وحق الولد .

• أما أم سلمة هند بنت أمية ذات الأطفال الأربعة فلم يكن لها كذلك بعد استشهاد زوجها أحد من أهلها ، فمن يدخل عليها لرعاية الأيتام ، ومن يكفل الأطفال الأربعة ، لا شك أن فى مجتمع الصدر الأول من يسارعون إلى هذا الخير ، عملاً بقوله تعالى ﴿ فإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ يوضح القرآن لنا باعثاً كريماً على سبب الزواج الثانى أو الثالث أو الرابع ، وهو الإقساط فى اليتامى لرفع الحرج ، وتنشئة الأطفال فى أجواء صحية ، ولتنقية المجتمعات من الأمراض الاجتماعية ، كقطع الرحم حين يتحرج الناس من الدخول على الأيتام ، أو بنشر القيل والقال وأكرم برعاية

الأيتام من باعث كريم سنه الرسول ، فضلا عما ينطوى زواجه منها
عل بواعث أخرى فى علم الله .

• أما الباعث فى زواجه ﷺ من حبيبة رملة بنت أبى سفيان
فأوضح من الشمس ، فهى أولا بنت أبى سفيان حامل لواء العداء فى
حينه ، وهى ثانيا من قبيلة بنى عبد شمس أعداء بنى هاشم
التقليديين ، وقد كشفت حوادث التاريخ فيما بعد عن بركة هذا
الزواج على مستقبل الدعوة ، لذلك لم يكن عجيبا أن الرسول ﷺ
يستخدم فكرة الزواج فى كسب قلوب أعدائه ، فنراه يوصى قواد
سراياه بالزواج من بنات شيوخ القبائل التى وجههم إليها ، فقد دعا
النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف وقال تجهز فإنى باعثك فى
سرية ، فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه ففسار حتى دومة
الجنديل ، فلما دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم
الثالث أسلم الإصبغ بن عمر الكلبي ، وكان نصرانيا ، وكان
رأسهم ، فكتب عبد الرحمن مع رجل من جهينة يقال له رافع بن
مكيث إلى النبي (ﷺ) يخبره ، فكتب إليه النبي (ﷺ) أن تزوج
ابنة الإصبغ ، فتزوجها ، وهى تماضر التى ولدت له بعد ذلك أبا
سلمة عبد الرحمن (١) ولو تصاهر إخواننا فى شمال السودان ذو

(١) حياة الصحابة — الطبعة الاولى — دار العلم — دمشق — بيروت ١٣٨٨ / ١٩٦٨
ج ١ ص ١٧٤ .

الأصل العربى بقبائل الجنوب من الزنوج لا نحلّت مشكلة جنوب السودان من أقصر الطرق ... هكذا صرح لى كثير من الجنوبيين عندما سعدت بزيارة السودان في احتفالات بدأ تطبيق الشريعة الإسلامية في عهد النميرى .

لذلك كان أمر الزواج من أم حبيبة واضحا على أبى سفيان عندما قال : « هذا الفحل لا يجدع أنفه » .

« أما الباعث في الزواج من صفية بنت حى رضى الله عنها ، ومارية القبطية رضى الله عنها ، فقد ثبت أنه خير صفية بين الإسلام والعنق فالزواج ، أو الذهاب إلى أهلها ، فاخترت الإسلام والزواج من رسول الله ، أما مارية فقد جاءته هدية من المقوقس عظيم القبط ، واختلف المؤرخون في إسلامها وهل لإفرادها بسكن بعيد عن جميع زوجاته سبب من أسباب عدم إسلامها ، المهم أنها ولدت إبراهيم عليه السلام ، وكانت مثلها مثل صفية سببا في إسلام الكثير من قومها ، فقد أوصى الرسول بقط مصر قائلا : الله في أهل الذمة ، أهل المدرّة السوداء السحّم الجعّاد ، فإن لهم نسبا وصهرا .



فصل

تنوع الخطبة

لو أن الرسول ﷺ كان قد تزوج امرأة واحدة لاعتبرنا الطريقة التي خطب بها أو عقد قرانه بها حتى اليوم هي الطريقة الوحيدة الشرعية ، وما عداها خطأ وعدوان ، ولتبادلنا كالعادة تهم الفسوق والمروق وربما والكفر أيضا ، ولكن الله خفف عنا في هذا الجانب من العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة ، بأن جعل رسوله قدوة لنا في فعله ، وقد نوع فعله في كل حالة من حالات الزواج ، ليكون في ديننا فسحة ، وإلا سيطرت علينا جاهليات لا يعلم عواقبها إلا الله ، وإن كنا للأسف حتى اليوم وبعد استعراض خطبة الرسول لكل زوجة سترون أن بعضها لانجروء على فعله وبعضها إن فعلناه اتهمنا أو قتلنا .

الصورة الأولى :

لنبدأ بخديجة رضي الله عنها — مَنْ مِنْ نساء اليوم تجروء أن تخطب لنفسها ، حتى ممن يدعين التقدم والانسلاخ من كل دين من نساء الغرب ، تظل الواحدة مترقبه الرأي الأخير لصديقها فيها ، وتخجل أن تطلب منه إتمام الزواج ، فكيف بالنساء المسلمات المؤمنات العفيفات ، وكيف بنات العائلات وسيدات البيوت ، هل سمعتم أو سمع أي منكم في حياته عن امرأة واحدة

أرسلت إلى رجل اعجبها فقالت له « يا ابن العم إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك وسامى منزلتك وقدرك » إن خديجة أم المؤمنين فعلت ذلك ، وهى التى قالت ذلك ونحن اليوم ننكر على من تفعل ونرميها بالتهم ، وفى رواية أنها أرسلت إليه نفيسة . قالت يامحمد مايمنعك أن تتزوج ؟ قال : ما فى يدى شيء قالت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ... قال ومن قالت خديجة قال : فإن وافقت فقد قبلت وشاور الرسول أعمامه فوافقوه ، وتقدم عمه حمزة فكلم عمها ، ثم أحضر رؤساء قريش يتقدمهم أبو طالب لعقد القران ، فكان لسان حالهم المتكلم الخاطب قال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضىء ضىء معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوبا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوازى رجل إلا رجع به ، فإن كان فى المال فإن المال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمد من عرفتهم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وله فيها رغبة ولها فيه مثل ذلك .

وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى ٢٠ بكرة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل .

وقام ورقة بن نوفل وقال — الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت ، فنحن سادة العرب وقادتها ،

وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبتا في الاتصال بحبلكم ، فاشهدوا على يامعشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار ثم سكت ، فقال أبو طالب قد أحيت أن يشاركك عمها . فقال عمها اشهدوا يامعشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد

الصورة الثانية :

أما الصورة الأخرى من الخطبة فكانت بعد وفاة خديجة رضى الله عنها عندما دخلت عليه خولة بنت الحكييم وقالت : كأنك يا رسول الله تجد لفراق خديجة بنت خويلد وحشة قال : أجل والله ، كانت ربة بيت وأم عيال ، فعرضت عليه الزواج فقال : ومن بعد خديجة . قالت : إن شئت بكرا ، وإن شئت ثيبا ، قال : فمن البكر قالت : عائشة بنت أحب الناس إليك قال لكنها ما تزال صغيرة ياخولة قالت : تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج ... قال : فمن الثيب فذكرت له سودة بنت زمعة ، المجاهدة الصابرة ، التى استشهد زوجها وتخشى اضطهاد قومها ، ووافق مسعاها ماسبق أن رآه صلوات الله عليه فى منامه بخصوص عائشة ، عندما عرضها عليه جبريل عليه السلام مرتين فى قماش من حرير أخضر . ويقول له جبريل هذه

زوجتك فى الدنيا وفى الجنة ، فيكشف عنها فإذا بها عائسة ، فتعجب وقال إن يكن هذا من عند الله يُمضه ، وجاءت خولة لتؤكد له بهذا أن الله إرادة فى هذا الأمر ، فیرسلها إلى بيت أبى بكر خاطبة وإلى سودة خاطبة .

وبعد أن ذهبت إلى بيت أبى بكر . وزفت إليهم النبأ السعيد ، ذهبت إلى بيت زمعة قائلة لها : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ياسودة ؟^(١) قالت : وماذا ياخولة .. قالت أرسلنى رسول الله أخطبك عليه ... قالت : سودة وددت ادخلنى على أبى فاذكرى له ذلك ... فدخلت عليه .. فقالت : إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلنى أخطب عليه سودة فصاح الشيخ ... كفاء كريم فماذا تقول صاحبتة قالت تحب ذلك . فسألها أن تدعوها إليه فلما جاءت تلقاها قائلاً أى سودة زعمت هذه أن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك ، وهو كفاء كريم افتحيين أن أزوجه . قالت نعم فأرسل زمعة إلى خولة أن تدعو له محمداً .

والآن نحن أمام صورة جديدة للرسول أى للواسطة بين الطرفين لإتمام الخطبة هنا وهناك امرأة مؤمنة لا حرج فى ذلك .

(١) توفى زوجها السكران بن عمر الأنصارى من هجرة الحبشة الثانية .

ليس هذا عيبا ولا دخولا للبيوت من أبوابها الخلفية ألا يكون الكلام بين الرجال مباشرة من البداية بل الكلام كله كان بين النساء ، من خولة لسودة ثم إلى أبيها . من خولة لأم رومان زوجة أبي بكر ثم إلى أبي بكر . أكثر من ذلك أن يخطب الرسول اثنتين فى وقت واحد .. نعم لأنه لا ينافق فلكل واحدة مهمة معينة فى حياته ، ورسالة ستؤديها ، لا يحب أن يتخذ لأهدافه زوجة واحدة ، والباقيات سكرتيرات أو خليلات ، لا بأس من خطبة اثنتين فى وقت واحد . هل يجروء رجل مسلم على فعل ذلك اليوم ، حتى مع قدرته البدنية والمالية والدينية . مؤمن اليوم أضعف من ذلك ، إنه مؤمن كلام ، ودموع كالنساء ، ومؤمن بلاغة وخطب طويلة لا تنتهى ، وفعل قليل ، وماذا أيضا فى هذا النوع من الخطبة من دروس ؟ فيه أنه دخل بسودة بنت زمعة وأرجأ الدخلة بعائشة حتى تنضج فشرع لنا هذه الفترة الزمنية بين الخطبة والدخلة لرى إن حدثت فى حياة أى منا ، كيف يكون سلوكه الرشيد فيها .

وايضا لتتعلم من ابى بكر حينما أرسل عائشة بتمر إلى الرسول ليراها .

أخرج الفشنى فى شرح الأربعين روى أن النبى ﷺ لما خطب عائشة من أبى بكر قال : يا رسول الله إنها صغيرة لا تصلح لك ، ولكن أرسلها إليك فإن كانت تصلح فهى السعادة الكاملة .

فقال : إن جبريل أتانى بصورتها على ورقة من الجنة ، وقال

إن الله زوجك بهذه ، قال : ثم ذهب أبو بكر إلى منزله وملاً طبقاً من تمر وغطاه ، وقال : يا عائشة اذهبي بهذا إلى رسول الله ﷺ وقولي له يا رسول الله هذا الذي ذكرته لأبي بكر ، إن كان يصلح فمبارك عليك ، وكان سن عائشة إذ ذاك ست سنين ، قال : فلما مضت عائشة دخلت على رسول الله ﷺ وبلغته الرسالة ، فقال : قبلنا ، وجذب طرف ثوبها ، قالت : فنظرت إليه مغضبة ، ودخلت على أبي بكر فأخبرته بما وقع فقال : لها وماذا قال قالت قال نعم وعلى بركة الله .

فقال : يابنية لا تظني برسول الله ﷺ ظن السوء . إن الله تعالى زوجك به من فوق سبع سماوات ، وزوجتك إياه في الأرض ، قالت عائشة رضي الله عنها : فما فرحت بشيء أشد من فرحي بقول أبي بكر قد زوجتك من رسول الله ﷺ (١)

الصورة الثالثة :

هيا بنا إلى صورة جديدة أبدؤها بسؤال أعرف إجابته مقدماً ، وهي بالنفي ، هل يجزئ أحدنا ، أن يعرض ابنته أو أخته بصفة خاصة على غيره ليتزوجها ، بالطبع ستثير هذه الحالة الأقاويل ،

(١) - من كتاب روضة الرياحين في حكايات الصالحين (على هامش كتاب عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق) الطبعة الثانية ١٣٧٤ - ١٩٥٥ شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .

لكن عندما نرقى إلى مستوى الصحابة نتذوق طعما جديدا للإيمان ،
يكون معه عملنا جديدا وقويا .

إننا أمام أمنا حفصة بنت عمر بن الخطاب ، التي ترملت شابة
بعد استشهاد زوجها ، فنجد أن عمر رضى الله عنه يعرضها على أبى
بكر فيعتذر فى أدب ، ويعرضها بعده على عثمان فيعتذر فى أدب
كذلك ، فيذهب إلى الرسول فيطيب الرسول خاطره ، ويقول له :
يتزوج عثمان من هى خير من حفصة ، وتتزوج حفصة من هو خير
من عثمان ، ويتم زواج الرسول إرضاء لعمر ، ويسجل التاريخ هذا
الموقف الكريم لعمر فى السعى لستر ابنته لدى رجال متزوجين ،
ولا يستهجن أحد فعله ، ولا تغضب منه زوجة أبى بكر ولا زوجة
عثمان ، بل الكل يعيش فى بيئة جديدة تزرع للآخرة ، تنظر
لاهداف بعيدة ، تأتى تصرفاتهم على قدر إيمانهم الذى رفعهم من
الأرض وحلق بهم فى السماء ، فيقابل أبو بكر عمر فيقول له لا
تجد على يا عمر فإن رسول الله قد ذكر حفصة فلم أكن أفشى سرا
لرسول الله ﷺ ، ولو تركها لتزوجتها ويقول له عثمان رضى الله
عنه مثل ذلك .

الصورة الرابعة

أنتقل لصورة أخرى أبدؤها بقصة حدثت مع صديق لى
اسمه فكرى حسين من أهل الصعيد ، يعمل مفتشا للتحقيقات

بمدارس التربية ، ومن خلال عمله التقى بأخت مسلمة تعمل
مدرسة وحدثها فى الزواج ورحبت ، وذهب إلى أيها فانتفض
الرجل سائلا ... هل حدثتها : فقال فكرى : على الفور ولا رأيتها ،
ولكن سمعت عن دينها ، فهذأت نائرة الرجل واطمأن وبدأت
المفاوضات العقيمة التى تحطمت على صخرة المال .

فايمان باللسان سهل ، أما بالعمل فصعب ، رأيتم لماذا لو
أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً فإنه لا يبلغ مد واحد من صحابة رسول
الله ولا نصيفه ... ادرسوا حياتهم العملية تدركون السبب ،
وتعرفون البون الشاسع بيننا وبينهم ، وصدق رسول الله حين أشار
الى رجل متنتع فى الدين وقال .. يخرج من ضيء ضيء هذا من
تحقرون عبادتكم بجوار عبادتهم ... وقراءتكم للقرآن بجوار
قراءتهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، لأن
الشقشقة والتمتمة شيء ، والقدرة على مواجهة المجتمعات المريضة
بالفعل شيء آخر ، لذلك يستحق الجرىء بالفعل أجر شهيد ، كما
قال رسول الله ﷺ على من يحيى سنته عند فساد أمته ... أعود
فأقول فماذا قدم لنا رسول الله العظيم من جديد فى خطبة
النساء نعم قدم لنا الخطبة المباشرة حين عرض الزواج من
نفسه على جويرية بنت الحارث ، عندما جاءت تستعينه فى فداء
نفسها من الأسر ، فقال لها : هل لك فى خير من ذلك قالت وما
هو : قال أعتقك وأتزوجك .. قالت نعم .

وهذا حدث أيضا مع أم سلمة فمن قائل إنه أرسل لها رجلا يخطبها ، ومن قائل إنه شافها بنفسه فاعتذرت قائلة ... إننى امرأة مسنة وذات عيال ، وشديدة الغيرة ... فقال رسول الله أما عن السن فأنا أكبر منك ، أما العيال فأضمهم إلى ، وأما الغيرة فسأدعو الله أن يذهبها عنك .

وجاءتنا هذه الخطبة الميمونة بدروس . أهم هذه الدروس أن الذى زوج أم سلمة هو ابنها الصغير سلمة ، وهو الذى وضع يده فى يد الرسول ، وبهذا يشب ذو نفس سوية لشعوره أنه هو الذى أدخل الرجل الجديد فى حياة والدته ، ولا ينظر إليه نظرة الغاصب الدخيل . أى صورة من صور إكرام أطفال الزوجة خلاف هذه الصورة من ابن مدرك ستظل تطبع أثرها الأليم فى نفوس الأبناء عندما يتجاهل دورهم فى مثل هذا الزواج .

• درس آخر أخذناه من خطبة أم سلمة هو أنه سبق وأن تقدم إليها عقب انقضاء عدتها كل من أبى بكر وعمر فاعتذرت بلطف ، وجاء حفظها مع رسول الله لتكون أما للمؤمنين .

• ودرس ثالث هو أن الزواج بعد عائشة ليس معناه أن الرسول قد قلبى عائشة وهجرها ، فمكانها فى قلبه لم تصل إليه زوجة أخرى ، لكن البواعث فى حياته تتعدد ، ولا شأن للبائع بالحب ، وهذا عكس ما تصوره أفلام اليوم للتفسير من شريعة الله

العادلة بتصوير الزواج الثانى بالصورة التى تكون على حساب الأولى فى كل شأن ، ومن الطبيعى أن تخلق منه فى طبيعة المرأة المسلمة أشد أنواع النفور ، بعد أن كان أمراً طبيعياً فى حياة الصدر الأول ، وحلت به عملياً جميع مشاكلهم .

❖ وأم هانئ بنت أبى طالب قالت .. خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني .

أما أفلام الشيطان فتصور الاعتذار على أنه إهانة للمخاطب ، ولا بد أن ينتقم أو يدبر الحيل للوصول إليها من أى طريق .

الصورة الخامسة :

❖ ونوع جديد فى خطبته لأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، وهو كيف يتم الأمر عن طريق الوكالة ، حيث أرسل الرسول ﷺ إلى النجاشى يوكله فى تزويجه من أم حبيبة بعد أن ارتد زوجها عن الإسلام وأبت هى أن تتابعه على الردة ونصحته بفارقه . امرأة تهجر رجلها — لا عيب فى الأمر ، بل تكريم — فى زمننا هذا تكون محل تفكه وتندر ، حتى لو كان زوجها من أرباب السكر والخمر ، لكن الدروس تتوالى علينا من الرسول وأصحابه لعنا نستفيد .

أرسل النجاشى جارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه ، فاستأذنت على أم حبيبة وقالت : إن الملك يقول لك إن

رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجه ، فقالت بشرك الله بخير
قالت :

ويقول لك الملك وكلى من يزوجك ، فأرسلت إلى خالد
بن سعيد فوكلته ، وأعطت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين كانتا
عليها ، وخواتيم من فضة كانت في أصابع رجلها سرورا بما بشرت
به . لكن النجاشي أمرها أن ترد الهدية إلى أم حبيبة .

وفي المساء حضر جعفر بن أبي طالب مع جميع المسلمين فخطب
النجاشي فقال : الحمد لله القلوس السلام المؤمن المهيمن العزيز
الجبار أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأنه الذي
بشر به عيسى بن مريم . أما بعد ... فإن رسول الله ﷺ كتب إلى
أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وقد أصدقته أربعمئة دينار ثم
سكب الدنانير بين أيدي القوم فتكلم خالد بن سعيد الذي
وكلته أم حبيبة عنها فقال ... الحمد لله أحمده وأستغفره وأشهد أن
لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد فقد
أجبت إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي
سفيان فبارك الله لرسوله ، ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد
فقبضها ولما أرادوا أن يقوموا قال ... اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا
تزوجوا أن يؤكل طعام على الزوج ، فدعا بطعام فأكلوه .

الصورة السادسة :

وخطبته لزینب بنت جحش المطلقة فیها درس فی تریبة المجتمع المسلم علی دوام المحبة بین رجاله ، فهل فکر أحد عندما یتزوج امرأة مطلقة أن یرسل إلیها زوجها السابق خاطبا ، إن جاهلیتنا تنفر من المطلقة ، لأن رجلا یدب علی الأرض کان زوجها لها وترى جاهلیتنا أن الأرملة أخف وطأة علی النفوس ، وما هکذا یعلمنا الرسول فزینب بنت جحش مطلقة زید بن حارثة . وهو نفسه زید الذی ذهب عن طیب نفس مبعوثا من الرسول إلیها ، وقال : إن رسول الله أرسلنا إلیک یدکک فقلت حتی أوامر ربی وقامت إلی مصلاها وكانت تفخر علی نساء النبی قائلة زوجکن أهالیکن وزوجنی الله من فوق سبع سموات .

الصورة السابعة :

وخطب امرأة لم یرها تسمى قتيلة زوجها أخوها ، وقد كانت فی حضرموت ولما حضرته الوفاة قبل أن تصل إلیه وكانت فی الطريق أوصی بأن تخیر بأن یضرب علیها الحجاب وتصبح من أمهات المؤمنین ، أو إن شاءت الفراق فاخترت الفراق ، وتزوجها عکرمة .

نعم هو الذی أوصی علیه السلام بأن یرى الخاطب خطیبته أولا فإن ذلک أحرى أن یؤدم بینهما ، لكنه فی نفس الوقت لا یحرم

صورة من الخطبة تحدث لاعتبارات يعز فيها رؤية الخطيبة ، إن الله يشرع للبشر فى جميع الأحوال وإلا وضعنا نحن من عند أنفسنا قيودا ما أنزل الله بها من سلطان ، فكان لابد من الهدى لنا حتى فيما يعتبر من الأحوال النادرة .

الصورة الثامنة :

ونوع جديد من الخطبة استجابة لمصلحة عليا رآها أصحابه ، ووجدها فى محلها ، حين كلموه فى أهمية زواجه من صفية بنت حُيَّ سيدة قريظة والنضير ، وقالوا إنها لاتصلح إلا لك لأنها كانت بنت أمير القوم ، ومن أعقلهم وأصيبت فى أعز أهلها ، فأرسل الرسول ﷺ إلى دحية التى وقعت فى نصيبه وقال له ... خذ جارية أخرى من السبي غيرها ، ثم أعتقها الرسول وتزوجها ، وأسلم بسببها عدد كبير من أهلها . ومن منا اليوم ترى قيادة الجماعة مصلحة فى تزويجه بامرأة ما فيستجيب ، ولا تقوم فى بيته مندبة ولا يتملص بشتى الحيل .

الصورة التاسعة :

ودرس جديد من خطبة برة أخت أم الفضل زوج عمه العباس ، كانت زوجة مسعود بن عمرو الذى اغتم لنصر المسلمين فى خيبر ، وفرحت فتشاجرا فافترقا وقد غير الرسول اسمها إلى **ميمونة** وهى التى كلمت أختها أم الفضل فى رغبتها فى الزواج من رسول

الله ، وفوضت أمرها إلى أختها فكلمت أم الفضل زوجها ، فكلم العباس بدوره رسول الله ابن أخيه ، وكانت ميمونة فعلا لأن الزواج حدث عند زيارة المسلمين لمكة عندما سمح لهم لمدة ثلاثة أيام ، وحيث أنها خالة خالد بن الوليد فقد تأثر لإسلامها وأحدث إسلامها دويا في مكة ، فطن الرسول لأبعاده وحاول أن يقيم الفرح في مكة قبل عودته فأبى المشركون فقال لهم : ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه فقالوا لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا ... وتأخذ الدروس من هذا الزواج في كونها هي التي رغبت في الزواج من الرسول وفي حق الزوج في تغيير اسم زوجته وأيضا ريحانة من بنى النضير التي دخل عليها الرسول بعد أن وقعت في الأسر ، وقال لها إن أحببت أعتقتك وتزوجتك فعلت ، وإن أحببت أن تكوني في ملكي فقالت يارسول الله أكون في ملكك أخف على وعليك ، فكانت في ملكه حتى ماتت وفي رواية أنها أسلمت وأعتقها الرسول وتزوجها وأصدقها ١٢ أوقية كما يصدق نساءه .

الصورة العاشرة :

وأخيرا تلك التي عرضت نفسها ولم يقبلها وبها تتم الصور جاءت امرأة إلى رسول الله فقالت يارسول الله إنى وهبت نفسي لك ، فنظر إليها الرسول (ﷺ) فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأ رأسه ، فقامت طويلا فقام رجل فقال ... يارسول الله

زوجتيها ان لم تكن لك فيها حاجة ... فقال هل عندك شيء
تصدقها ؟

قال ما عندي إلا إزارى هذا ... قال فالتمس ولو خاتما من
حديد فالتمس فلم يجد شيئا ... فقال رسول الله ﷺ ... هل معك
من القرآن شيء .. قال نعم سورة كذا وسورة كذا فقال زوجتكما
بما معك من القرآن . وفى رواية انطلق فقد زوجتكها فعلمها القرآن .
وفى رواية طريفة بعد أن لم يجد خاتما من حديد قال لرسول
الله هذا إزارى فلها نصفه

فقال رسول الله ﷺ ما تصنع بازارك ؟ إن لبسته لم يكن عليها ،
وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء فجلس الرجل حتى طال مجلسه
ثم قام فرآه رسول الله ﷺ موليا ، فأمر به فدعى فلما جاء قال ما معك
من القرآن ؟ قال معى سورة كذا..... الخ (رواه
الخمسة)

الصورة الحادية عشرة :

خطبته ﷺ للأخت الصغرى قبل أن تخطب أختها الكبرى ، ومعلوم ما
تسببه هذه الصورة الآن من مشاكل وضياع مصالح في الأسر
المتخلفة ..

فقد خطب ﷺ عائشة رضي الله عنها ولم تكن أختها الأكبر أسماء قد
خطبت بعد للزبير بن العوام ...

المهور وأنواع العرس في حياة الرسول ﷺ

لم يفرق الرسول ﷺ في كل المهور التي دفعها بشخصه بين ثيب وبكر ، ولا بين عجوز وشابة ، ولا بين من أحب ومن ضعف حظها من الحب ، ولا بين اختلاف أحواله من عسر ويسر إذ كانت جميع المهور متماثلة ، لم تتعد اثني عشر أوقية ، أى أربعمئة درهم ، أما المهور التي دفعت من قبل غيره كتلك التي دفعها النجاشي لأُم حبيبة ، أو التي دفعها عمه أبو طالب لخديجة رضى الله عنها قبل البعثة فلم تدخل تحت المستوى العام الذى ارتضاه الرسول ﷺ لجميع نسائه فى جميع أحواله ذلك لأن النجاشي دفع عن الرسول ﷺ أربعمئة دينار ، وكذلك فعل عمه أبو طالب ، وفى قول أنه دفع عشرين بكرة ... وفيما عدا ذلك فقد كانت جميع المهور متماثلة .

فوجد أنه ﷺ قد أصدق عائشة رضى الله عنها قصعة ، قدحا ، فراشا حشوه ليف ، ورحى قومت بحوالى أربعمئة درهم . وأنه ﷺ قد أصدق حفصة رضى الله عنها أربعمئة درهم ، ثمنا لبساط ووسادتين وكساء رحب يفترشان نصفه ، ويلتحفان بالنصف الآخر فى الشتاء وإناءين أخضرين .

وأنه ﷺ أصدق ميمونة أربعمئة درهم . وأنه ﷺ أصدق جويرية أربعمئة درهم ، وأن رسول الله ﷺ أصدق زينب بنت خزيمة أربعمئة درهم ، وأنه ﷺ أصدق ريحانة مثل بقية نسائه ،

وأنه ﷺ جعل صداق صفية رضى الله عنها هو عتقها .
ولما سأل سلمة الصغير رسول الله عن قيمة صداق أمه أم سلمة رضى الله عنها قائلاً لرسول الله ﷺ ما تسوق اليها من الصداق ؟ قال ﷺ كما أصدقت عائشة .

لما خطب الرسول ﷺ أسماء بنت النعمان بن أبي الجون بن الأسود بن الحارث دفع لها مهراً اثني عشر أوقية فقال أبوها
يا رسول الله لا تقصر في المهر ... فقال ﷺ ما أصدقت أحداً من نسائي فوق ذلك .

« لم يتغير مقدار المهر سواء عندما تزوج بسودة بنت زمعة وهو محارب من قريش في مكة ، ويعيش في أشق الظروف ، ولا عندما تزوج بميمونة في غزوة الحديبية ، وقد دانت الجزيرة العربية لسلطان الإسلام — ... وليس من طبع البشر هذه الدقة من الالتزام ولكنه الهدى ... وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألا لا تغالوا بصداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله ... ما علمت رسول الله نكح شيئاً من نسائه ولا انكح شيئاً من بناته على أكثر من اثني عشر أوقية .

وما أكثر المظاهر في عصرنا ، وما أبعدنا عن هدى رسول الله بتأويلات كثيرة للأحاديث والآيات ، تنم عن ضعف الإيمان وغلبة الفساد ، وحياة البذخ والإسراف هي أحد الأسلحة التي يدأب

الإعلام الغربى إبرازها وتضخيمها ، لتشويه المسلمين والصد عن الدخول فى الإسلام فالإعلام هنا يبرز المسلمين إما فى صورة البذخ المسف ، أو الفقر المدقع ، أو القسوة الشديدة خلال الحروب والضحايا ، وقد عرض منذ عام فى التلفزيون الألمانى صورة فرح خليجى أريقت فيها الأموال كما تراق الدماء ... حظى القلم بتعليق ساخر من المذيع ، فضلا عن الغمز واللمز فى الإسلام ، بإظهارهم صورة المساجد والمصلين خلال عرض الأفراح وجعلوا عنوان البرنامج « الرجال والأطفال » .

وأذكر لرئيسة تحرير أسرتى موقفا نبيلًا عندما حملت المجلة على أحد الأفراح الكويتية التى تعدت حدود المعقول ... وبالجمله فالمسلمون يعيشون حياة بعيدة عن الهدى النبوى إلا من عصم الله ، حيث فقلوا فى أفراحهم القلوة الحسنة وساد التفاخر والتنافس فى المهور ، وسعرت الفتيات ، ونال فريقا من النساء أكبر قدر من الظلم ، وهم الثيبات ، حيث استقر فى الذهن الاجتماعى عدم مساواتهن بالأبكار فى المهور وأفراح العرس ؛ وذلك على خلاف هدى الرسول ﷺ الذى ساوى بين الجميع فى المهور ، بل ورخص فى أن يكون المهر ولو خاتما من حديد ، وحدثنى صديقى الأستاذ على عبد الحليم المدرس بالمدرسة الألمانية الإسلامية بميونخ عن توسطه فى زواج امرأة مطلقة حدث لها ولأهلها صدمة قوية عندما أصر الخاطب على ألا يدفع أكثر من مائة جنيه مهرا لأنها

غير بكر ... وفشلت الزيجة بسبب هذا التقدير السيء من العريس .

أما عن أنواع العرس

عرس السيدة خديجة رضى الله عنها — لقد دخل بها الرسول فى بيتها ، وهى صورة مختلفة عن دخوله بعائشة رضى الله عنها فى بيت أبيها ريثما هيا لها بيتا خاصا .

هنا البيت بيت العروسة بكل ما كان عليه قبل الزواج ، ومعلوم أن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت قد تزوجت مرتين قبل الرسول ، ولها من كل زواج أبناء كبار السن ... فى مثل هذه الحالة يشق عليها حين الزواج الجديد أن تلتزم بترك بيتها وأسرتها وتجارتها ، لتنتقل إلى بيت الزوجية ... فكان فى مثل هذه الصورة الواقعية من دخول الرسول بها فى بيتها دون أن يتغير شئ فى حياتها المستقرة نموذج عملى واقعى لحالات قد تتشابه معها ، وبهذا يتم رفع الحرج فى حياة المسلمين ، برؤيتنا لجميع صور الدخلة التى لا تخرج حياة العروسين عن واحدة منها من خلال تيار الحياة المتدفق ، لا من خلال الجمود عند شكل واحد معين لا تقوم الحياة الزوجية إلا به ، لأن ذلك فى الواقع يعطل قيام كثير من الزوجات ، التى لا يسهل فيها انتقال العروس إلى بيت العريس ..

عرس عائشة رضى الله عنها .

دخل الرسول بعائشة رضى الله عنها فى بيت أبيها أبى بكر رضى الله عنه ، ريثما هياً لها الرسول بيتا خاصا ، بعد بناء مسجده ﷺ ، حيث كان البيت الجديد ملحقا بالمسجد مثل بقية بيوت أمهات المؤمنين رضى الله عنهن من بعدها . قالت عائشة رضى الله عنها دخلت أُمى فإذا رسول الله ﷺ جالس فى بيتنا ، وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فاحتبستنى أُمى فى حجرة ثم قالت لرسول الله هؤلاء أهلك بارك الله لك فيهم وبارك لهم فيك ، فخرج الرجال والنساء وبنى بى فى بيتنا ، ما تُحر على جزور ولا ذُبَحَت شاة حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة .

وقالت رضى الله عنها لقد تحصل لرسول الله قدح من لبن ، شرب الرسول منه ثم تناولته على استحياء فشربت منه . وكان أثاث البيت عبارة عن قصعة و قدح وفراش حشوه ليف ورحى كما ضم الأثاث الدمى التى كانت تلعب بها .

* أما حفصة رضى الله عنها فقد أولم عليها المهاجرون دون الأنصار رطبة مأكوطة بسمن وتمر وعجوة .

* أما ربحانة رضى الله عنها فقد دخل بها الرسول ﷺ فى بيت أم المنذر .

* أما أم حبيبة رضى الله عنها فإن النجاشى هو الذى أصدق عن الرسول ﷺ كما أولم عنه أيضا ، حيث قال للمصحابة رضى الله

عنهم : بعد القرآن اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزوج .

★ أما أم سلمة رضى الله عنها فقد دخلت على متاع زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ، التى توفيت عن أكثر من ستين سنة ، وتركت بالبيت جرة فيها شعير ، ورحى وبرمة وقدر وقعب ، فطحنت الشعير وعصدته فى البرمة ، وقدمت الطعام للرسول ﷺ .

★ أما زينب بنت خزيمة رضى الله عنها فقد أولم الرسول عليها بجزور ، وغدا الناس على النبى بالهريسة فلم يجتمع لهم إلا الهرائس ، فدعى النبى لهم بالبركة .

★ أما زينب بنت جحش فقد ذبح المصطفى شاة ، وأمر مولاه أنس بن مالك أن يدعو الناس ، فترادفوا أفواجا ، يأكل كل فوج ويخرج ، ثم يدخل فوج آخر ، إلى أن قال أنس يارسول الله دعوت ما أجد أحدا أدعوه ، وقيل بلغ عدد المدعوين ثلاثمائة شخص ، وانصرف الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون والعروس وجهها للحائط وطال سمرهم حتى تخرج النبى ، فقام ومر على زوجاته ، ثم عاد فوجدهم مستمرين ، فعاد إلى بيت عائشة وترك معهم أنس بن مالك ليخبره عند انصرافهم الى أن انصرفوا .

وكانت هذه الواقعة سببا فى نزول آية الحجاب فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ

إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ... وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ... إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴿٤٢﴾ .

★ أما صفة رضى الله عنها فقد دخل بها فى قبة ضربت له فى طريق عودته من خيبر إلى المدينة ، حيث جاءت أم مالك ابن أنس فمشطتها وجملتها ثم بنى بها . ووقف أبو أيوب الأنصارى يحرس الخيمة ، فلما أصبح وجده الرسول ساهرا فسأله الرسول قائلا مالك يا أبا أيوب ؟ قال يارسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، لأن أباها قُتل وزوجها كذلك وكثير من أهلها ، وهى حديثة عهد بكفر فخفتها عليك ، فدعى له وقال اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

ومما يذكر أيضا أن رسول الله ﷺ هم بالدخول بها فى خيبر فامتنعت ، فأمرها ليتحقق السبب ولم يأخذها قسرا كما يفعل الجهلة ، فلما ارتحل فى طريقه إلى المدينة وضربت القبة سألها عن سبب امتناعها أولا فقالت له : لأنى خفت عليك يهود ، فسر ﷺ لمعرفة الدافع الكريم ، ولقد أولم الرسول عليها بأن بسط نطعا له وقال من عنده شئ فليأت به ، فتسابق الصحابة بما لديهم من تمور

وأقط وسمن ، ولما وصل المدينة أنزلها فى بيت صاحبه حارثة بن النعمان ريثما يعد لها مكانا بين زوجاته ...

* وعندما خطب الرسول ﷺ أسماء بنت النعمان أرسل أبا أسيد الساعدى لإحضار العروس .

* أما مارية رضى الله عنها فقد نزلت فى بيت خاص منفرد فى أطراف المدينة أما ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها فقد ساق الرسول إليها بيتا تاما وخادما ومتاعا ، وأولم عليها ونحر جزورا ... ولما علمت بخطبة الرسول لها وهى تسير على بعير قالت البعير وما حمل لله ورسوله تزوجها الرسول بمكة ، ودخل بها فى الطريق بمنطقة يقال لها سرف فى عمرة القضاء على بعد ٦ أميال من مكة .. وغير الرسول اسمها من برة إلى ميمونة . وأخيرا روت الربيع بنت معوذ قالت :

جاء النبى ﷺ فدخل حين بنى على ، وكانت قد تزوجت بإياس بن البكير الليثى فجلس على فراش ... فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر (اى يذكرن أوصاف أبيها معوذ وعميها عوف ومعاذ الذين استشهدوا فى بدر وما كانوا عليه من نجدة وكرم وما عرفوا به من بسالة وإقدام) إذ قالت إحداهن وفينا نبى يعلم ما فى غد . فقال لها النبى ﷺ دعى هذا ... وقولى بالذى كنت تقولين .^(١)

(١) صحيح البخارى — باب إباحة الضرب بالدف فى النكاح والوليمة .

الدروس المستفادة :

من هذه الصور العديدة للعرس فى حياة الرسول على جميع الحالات المشروعة ، ولا نحمد عند صورة بعينها ونخطئ ما عداها فها هو الرسول ﷺ قد دخل بعروسه فى بيتها فى بيت أبيها ، أو فى أثناء السفر ، أو على متاع زوجة ماتت قبلها ، كما دخل ببعض زوجاته بيت قريبة له ، أو أنزلها فى بيت صاحب له ، أو خصها بسكن مستقل ، كما أولم عليه الصلاة والسلام بشتى الصور : بشاة ، أو بجذور أو بالتمر ، أو بالهريسة أو الأقط والسمن ، أو بجفنة وقدر لبن أهدى إليه ، أو بدعوة أصحابه لإحضار مالديهم ، وبسماعه لغناء الجاريتين فهل بعد ذلك سماحة ويسر كسماحة الإسلام ، وهدى محمد ﷺ الذى يربى المؤمنين من خلال حياته الخاصة مع أمهات المؤمنين ، اللاتى تستوعب حياتهن كل ما يمر على البشر فى هذا اليوم السعيد فى حياتهم ... ألم نكن نحن الذين فى حاجة إلى معرفة هذه الصور العديدة لرفع العنت عنا .

لست فى حاجة إلى أن أذكر بأن الهدى النبوى ، فى علاقة الرجل بالمرأة ، فى كل أحوالهما على مدار الحياة الزوجية ، إنما هو للمؤمنين والمؤمنات الذين برئوا من الأمراض المزمنة التى لصقت بالإنسان فى كل اية ورد فيها ذكر للإنسان ، من طغيان أو هلع أو